مفهوم (المواطنة) وتمثلاته في التراث البغدادي

أ.د. علي حداد*

• مقدمة :

يرد في معجم (لسان العرب) الآتي : « الوطن: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله... وأوطنَ : أقام، يقال : أوطنَ فلان أرض كذا وكذا : أي اتخذها محلاً ومسكناً يقيم فيها ... وأوطنت الأرض، ووطّنتها توطيناً واستوطنتها، أي اتخذتها وطنا... أما المَواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له ... وواطنه على الأمر أضمر فعله معه... وقيل: وطّن نفسه على الشيء وله فتوطنت : حملها عليه فتحملت»[1]. ولعل ما تحمله مفردة (وطن) لغة ـ ومثلها اشتقاقاتها، ولاسيما مفردة (المواطنة) ـ لا تكاد تغادر حديث المكان والصلة الموثقة به . وكل محل يقيم فيه المرء وينتسب إليه هو موطنه، حيث تتحقق الصلة بين الإنسان ومرتهن إقامته من خلال (توطين) الذات الفردية مع سواها على أمر (الاستيطان) في مكان بعينه، تتخلق فيه ـ وعبر تشكل وجود الجماعة ـ ذات مجتمعية، تتواضع على العيش في المكان الذي غالباً ما نالت مسماها الجمعي من خلال انتسابها إليه، أو انتسابه إليها، وبذا (يتوطّن) الجمع البشري، ليؤسس (وطنا) يقيم فيه وينتمي إليه.

ولا يكاد المفهوم الاصطلاحي للـ (مواطنة) ليباعد دلالته عن حده اللغوي بل هو متأسس عليه وقارة دلالته فيه، بما يقوم عليه من ثنائية (الإنسان/المكان). ومسعى التمثل الجمعي الغريزي الذي تعايشه الذات الإنسانية في اطمئنانها لوجود (مكاني/مجتمعي) يكتنفها وسواها، وتقرّ بانتسابها إليه عبر إنتاج قيمي واعتقادي وسلوكي ولغوي بصبح سمة (مواطنة) للمكان وأهله.

* جامعة بغداد – مركز احياء التراث العلمي العربي

وما ينضحه الكلام أعلاه أن (المواطنة) تتأسس على اشتراطات عدة، مبتدؤها (المكان) الذي يصلح للسكنى والاستقرار والعيش، وتتوافر فيه إمكانات التكيّف البشري لظروفه الطبيعية والاقتصادية والتواصل المجتمعي، والانتساب إليه هوية تمثل أساس، تتبناها (جماعة) بشرية تصنع وجودها المتميز القار في ذلك المكان، وتتخيّره قيمة عليا وخصوصية تمثل إنساني تواجه به سواها من أهل (المواطن) الأخرى وتحاورهم عبرها. وبذا يصبح وجود (الجماعة) البشرية المتمسكة بقيم انتسابها إلى ذلك المكان واحدة من أساسيات الإعلان عن فقه (المواطنة).

وتؤدي (الفاعلية الزمنية) دورها في ترسيخ قيم المواطنة، إذ ـ وطبقاً لقول الغذامي ـ أن «للزمن قدرة جبارة على ترسيخ المشاعر حتى لتكون معتقدات، وكلما طال الزمن على شيء تعمق في أرض الذاكرة، وتمنع على التساؤل وصار التسليم به شرطاً وجودياً ومعتقداً روحانياً»[٢] . وعلى هذا فكلما كان أمد استيطان الجماعة للمكان بعيداً في زمانيته، موغلاً في تاريخيته، كان الإعلان بيّناً عن عراقة تلك (المواطنة)، وجاءت كشوفاتها أكثر رسوخاً وإمعاناً في البث المخبر عنها، لما يشكله التراكم الزمني وتتابع الأجيال وعيشها في(الوطن) ذاته من تواصل لإنتاج مختلف التمثلات الاقتصادية والسلوكية والقيمية المتبنية لهوية تتكيّف لها وترسخ وجودها فيها.

وإذ تبرز من خلال قيم تلك المواطنة أنظمة اجتماعية مقننة التوصيف وممارسات اقتصادية تقيّدها طبيعة المكان ومكتنزات أرضه من الثروات الطبيعية والبشرية، وتماهي المنتمين إلى تلك الهوية في بوتقة مجتمعية بعينها فإن ما يتوافرون عليه من إنتاج ثقافي (قيمي وأدبي) منسجم ومتسع ومؤثر في البنية المجتمعية التي انتموا إليها، يؤسس لفضاءات ثقافية خاصة .

هكذا تتجاوز(المواطنة) أن تكون ورقة رسمية أو جواز سفر يحمله الفرد مخبراً عن انتمائه إلى (وطن) بعينه، لتستحيل وجهة ثقافية دالة، تتجلى في مجموع من القيم المعنوية المعبرة عن مشاعر الانتماء، وعاطفة التواصل مع أبناء الوطن الآخرين ومشاركتهم في تأكيد موجبات السّمت الوطني وهويته، عبر مواقف ذهنية وشعورية، وممارسات قيمية وسلوكية وتمثلات تعبيرية (جمالية) تفصح عن ذلك كله وتتمثله.

●كشوفات (المواطنة) البغدادية : (١)

تراتبت طبيعة الانتساب المكاني للفرد البغدادي ـ كما هي عند غيره ـ من الفضاء المكاني الأصغر الذي يكتنف وجوده نحو ما هو أكبر منه، فهو يستهل انتماءه المكاني ـ بالزقاق، صاعداً نحو الانتماء إلى الحي (المحلة)، فالقضاء (أو المدينة)، ثم المحافظة (وكانت تسمى سابقاً : اللواء). ومن نضح تلك (الانتسابات المكانية) استمد كثير من البغدادين ألقابهم، لتجد فيهم من لقبه:(الرصافي) و(الكرخي) و(الكاظمي) و(الأعظمي) و(الشيخلي) و(الكرادي) وسواها، وهي مآلات انتساب فرضت نفسها في (بغداد)، لمن كان له إقامة بعيدة بزمانيتها فيها، لتكون أكبر من الانتساب إلى العشيرة أو العائلة التي يحتفظ معظمهم بتداولها في محيطه القبلي أوالعائلي. أما الآخرون من أهل بغداد فقد حافظ القادم إليها لاحقا ـ في الغالب

من الأحوال ـ على مسمى انتسابه المكاني الذي قدم منه، وذهب غيره إلى تخّير مسمى يستمده من انتسابه القبلي، أو من طبيعة المهنة التي يمارسها، أو من اسم جد العائلة الأكبر الذي يتصل نسبه به.

هكذا تبدى الانتماء إلى البيئة البغدادية متعدداً في مكوناته، ولكنه متماسك في نسيجه الاجتماعي الذي تعززه عوامل قيمية عديدة، تبدأ من مظلة الانتماء الوطني الكبرى التي استوعبت تلك الانتماءات الأصغر، وتتواصل في تلاوين مكوناته التي كان من إفرازات تماهيها مع بعضها إنتاج هوية (بغدادية) واضحة التمايز عن سواها من مدن العراق الأخرى، بدت ـ في ما تخبر عنه ـ أكثر مدنية وتطلعاً نحو التحضر وقيمه، وأوضح اطلاعاً وتواصلاً مع المستجدات الثقافية والعلمية والحضارية ومنجزها الوافد من البلدان الأخرى، ولاسيما الغربية منها، من دون أن تنال تلك الفاعلية المدنية المتسارعة في تكيّفها المادي من القيم السلوكية والأخلاقية ومحددات التعامل الإنساني، وأريحية المسلك المجتمعي التي تواضع البغداديون عليه في ما بينهم.

لقد كانت قيم (التكيف المجتمعي) متعدد الطوائف والأعراق سمة بارزة الحضور في المجتمع البغدادي، يسودها (التسامح) العرقي والديني، و(التعاون) واحدة من سجايا صلتهم ببعضهم، إذ لابد من (الجيرة الحسنة)، ومن أجلها يوصي بعضهم بعضاً (الجار قبل الدار)، وسوى ذلك كثير من الكشوفات الاعتبارية والسلوكية التي تمثلها المجتمع البغدادي بوقائع متواترة الحضور عند أفراده في التآزر المجتمعي الذي يجعل كلاً منهم حريصاً الحرص كله على سمعة (محلته) ومنطقته، ومساعدة من يحتاج ذلك من أهلها، والتضامن معه في مناسبات أفراحه وأتراحه، والاحترام الكبير للمرأة، وعدّ حمايتها واجباً على من حولها.

(٢)

لعله ـ ومن أجل مسعى الاطلاع المنسق على سمت المواطنة البغدادية وكشوفاته ـ أن نضع ما تهيأ لنا رصده (مبوباً) في مجالين، يكون أولهما عن الكشوفات (المادية) للتراث الشعبي البغدادي متمثلة بأنماط الملبس، وأنواع الأطعمة، ومعمارية البيت البغدادي وأما المجال الآخر فسنكرسه لما عنّ له أن يكاشف قراءتنا من تجليات ذات طبيعة (معنوية) أخبرت ـ كسابقتها ـ عن هوية محلية خاصة في هذا الجانب.

● الكشوفات المادية:

ليس الزي مجرد حاجة مادية تأخذ سمتها النفعية، وهي تستر الجسد البشري وتغطيه، فقد تجاوز الأزياء تلك المهمة، وأضيف لها سواها مع التطور الحضاري للمجتمعات البشرية، واستحضار البعد الثقافي الذي صار الزي من بين تمثلاته، وعلى هذا ـ وطبقاً لرأي أحد الباحثين ـ فيمكن عدّ هيأة الزي «الكاشف الفعلي لدراسة المجتمعات وذواتها»[٣]، إذ هي«متن مؤثر في قراءة التحتانيات المجتمعية»[٤].

لاشك في أن خصوصيات بيّنة يمكن رصدها في طرز الملبس المحلي العراقي تميزه عمن يحيطه من شعوب وبلدان أخرى، على الرغم من تداخله العرقي والديني مع بعضها. ومثل هذا التنوع سنجده في البيئات الشعبية العراقية، طبقاً لتباينها في نشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية، وقد انعكس كثير من هذا التنوع في الزي على بيئة بغداد التي استوعبت ـ فضلاً عن أهلها

(مؤصلي الإقامة) فيها ـ فئات ومجاميع بشرية من مختلف مناطق العراق، وقد جلبت خصوصيات ملبسها معها، لتضيفه إلى ما لأهل بغداد منه، وتتبادل التأثر به والتأثير فيه. وعلى هذا فإن الحديث عن الزي البغدادي بتفصيلات أنواعه يكاد يمسي حديثاً عن الزي العراقي بعامة.

وإذا استثنينا بعض مكونات الزي البغدادي التي استجدت فيه، لتكون من امتيازاته الخاصة، ولاسيما ما اختصت به طبقة (الأفندية) ـ التي برزت بأدور ثقافية وسياسية مؤثرة في المجتمع البغدادي ـ وقد لبست غطاء الرأس (السدارة الفيصلية)[٥] بتلازم مع ارتداء البدلة الافرنجية فإن كثيراً من المكونات الجزئية التي يتألف منها ذلك الزي لا تكاد تختلف عما هو لدى العراقيين كافة، غير أنهم كانوا يصنعون تمايزهم في طرائقهم٠ وأساليبهم الخاصة في ارتدائها. فنوع لباس الرأس ـ المكون من الطاقية و(الغترة) والعقال عند بعضهم مثلاً ـ هو ذاته الموجود في مناطق عراقية أخرى، ولكن طريق البغداديين في وضعه وشكل ارتدائه هي المختلفة. وكذلك هو الحال مع تفصيلات ملابس الرجل البغدادي الأخرى، ومثلها ملابس النساء أيضاً.

وإذ تتغير بعض تفصيلات تلك الأزياء بحسب المستوى الاقتصادي فإنها في الإطار العام تبقى ذات إشارات دالة على سمات المكان البغدادي وتمايزاتها المدركة بمجرد النظر إليها.

مع أن (الطعام) في أصل وجوده سد لاحتياجات الجسم البشري من الغذاء فإن حضوره في المجتمع البشري ـ الذي ناقله إلى مستويات سلوكية وثقافية متطورة جعل الممارسة الغذائية تستحيل نظاماً من العلامات الاجتماعية ومن التكيف البيئي والطبقي والقيمي، وذلك ما هيأه ليكون مجالاً خصباً لتأمل قرائي متعدد الرؤى والكشف، ينظر إلى ما يعلنه بوصفه تمثّل ثقافي دال على المكان وأهله، إذ « يميز الدارسون في حقل نظريات مابعد الحداثة والبحوث الأنثروبولوجية بين أصناف الطعام وفرزها وطريقة التقديم وما يصاحبها من طقوس وعادات»[٦].ولعل في(المطبخ البغدادي) ـ بطبائعه الشعبية ـ مايجعله جديراً بالإخبار عن خصوصيات هوية محلية (بغدادية) على وجه الخصوص و(عراقية) على وجه عمومها الدال .

لقد كانت (بغداد) منذ تأسيسها وحتى راهنها الحديث ـ فضاء مكتنفاً لتداخل بشري متعدد الأعراق والثقافات. ولاشك في أن كل مجموعة منها قد وافت ثقافة الطعام البغدادي بجانب من قيم مطبخها، ليندرج ذلك كله في تشكيل السمات المخبرة عن مطبخها الوفير. غير أن ذلك لا يمنع بأن نذهب هنا في الرأي مع القراءات القائلة بـ (عراقة) المطبخ العراقي التي ترتقي ببعض معطياتها من الأكلات ومسمياتها إلى عصور بعيدة في تاريخيتها، حيث الحضارات العراقية القديمة (السومرية والأشورية والأكدية) التي أوردت بعض مسميات الأطعمة العراقية ووصفاتها التي ما تزال متداولة عندهم حتى اليوم[٧].

وإذا ما تجاوزنا تلك المساحة المتسعة التي يقوم عليها الطعام البغدادي في مكوناته الدالة على خصوصياته فقد تهبأ له أن يشرع متطلبات حركيته المتواترة لاستيعاب أشكال

من الطعام الوافد من بلدان مختلفة .

تعلن العمارة البغدادية عن خصوصياتها في المسمى وطرائق البناء، ويتوافر البيت البغدادي على معمارية خاصة من حيث تفصيلات مكوناته الخارجية والداخلية[٨]، إذ عرفت البيوت البغدادية ـ التي ما يزال القليل منها شاخصاً ـ بطرازها الخاص «من خلال عناصرها البنائية وزخارفها الهندسية والآجرية والجصية والخشبية. كما عرفت بأعمدتها المزخرفة ذات الرؤوس المقرنصة، مع كيفية استخدام المعمار لتوزيع الضوء والظل واللون بين العناصر المعمارية الزخرفية . كما أنه أدرك أن الخط العربي يتصف بخصائص تجعل منه عنصراً زخرفياً يؤدي دوراً في تزيين جدران البيوت البغدادية من الداخل والخارج. ومن هنا كان البيت البغدادي صورة من ابتكار المعمار العراقي وإبداعه المستند إلى التراث الأصيل»[٩].

لقد أرست البيوت البغدادية المتراصة إلى جانب بعضها، وكذلك أزقتها الضيقة جملة من المواضعات المستجيبة للعوامل البيئية والاجتماعية، فالتصاق تلك البيوت مع بعضها حدّ التداخل فيما بين كثير منها كان له ما يبرره على صعيد مواجهة تطرف المناخ بين حرّه الشديد وبرده القارص، مثلما أنتج ـ على مستوى العلاقات الاجتماعية ألفة مكانية وانتماء وتقاربا إنسانياً، بما وفّر مساحة من التجانس المجتمعي عميقة التمثل والإلزام القيمي بين ساكنيها، وهو مالم تعد توفره البيوت البغدادية الحديثة الواسعة المساحات التي افتقدت كثيراً من قيم (الجيرة) والتواصل مع المكان وأهله، فاضمحلت تلك الروح، وفقد معها ما يمكن لها أن تنتجه من نضح المكان في أوجهه الاجتماعية والثقافية المخبرة عنه. ويبدو أن الفرد قد استعاض عنها بصلاته مع أقاربه و(عشيرته)، ومع الجهة (النقابية) التي ينتسب إليها، أو مع العاملين وإياه في الدائرة أو المؤسسة التي هو فيها.

● الكشوفات المعنوية:

تتأسس معظم الكشوفات المعنوية الشعبية ـ مستثنين منها ما كان ممارسة اعتقادية أو سلوكية ـ مرت الإشارة إلى بعض أمثلتها ـ على حدّ من الأداء اللغوي الذي تنهض به اللهجة الشعبية المتداولة في البيئة المعنية بالتأمل، ولا يبعد الأمر مع بغداد وبيئتها المحلية من كشوفات في هذا الجانب من التصور، بل هو منطبق عليه تماماً، فقد تهيأت لبغداد لهجة محلية تندرج ضمن ما للهجات العربية المحلية المعاصرة من سمات وخصائص أداء، وهي ـ وطبقاً لما أقره الشيخ (محمد رضا الشبيبي) ـ « ليست بالمستحدثة العهد، فقد تبلورت صورتها منذ آواخر العصر العباسي»[١٠].

ولأهمية لهجة بغداد وتأثيرها في لهجات المناطق العراقية الأخرى بعامة فقد تصدى لدراستها وتبيان خصائصها الإدائية باحثون كثر[١١]. كما وضع بعضهم معاجم عن ألفاظها وكناياتها[١٢].

ولسنا هنا في مآل الحديث التفصيلي عن لهجة بغداد وسماتها، فذلك مما يطول الحديث فيه ويتسع،.ولعل المصادر مارة الذكر قد استوعبت أمره. ولكن ما نؤشره هنا أن لبغداد لهجة ذات طابع مديني يختلف في أدائيته التعبيرية ومفرداته، وسياق تشكلها الصوتي عن البيئات الشعبية العراقية الأخرى، وذلك

ما يـدرك بمجرد أن يتكلم أبناؤها[١٣]، ليخبروا عـن لهجتهم البغدادية التـي أجبرت كثيراً من القادمين إلى مدينتهـم أن يجاروهم فيها، وأن يتنازلوا عن بعض خصائص الأداء في لهجاتهم لصالحها في ممارسـة تداوليـة جمعية، تنادت إليها الممارسات التعبيرية التي تمثلتها مجالات التعبير الشعبي العراقي وهي تستوعب الأفكار والمواقف والمشاعر.

يعـرّف (المثـل) على أنه بنيـة لغوية مغلقة على نفسـها ومكتفية بدلالتها التي تستعاد في كل حالـة يمكن لهـذا المثل وغـيره أن ينطبق عليها. ويسـتمد المثـل فاعليتـه التعبيرية من التصاقـه بحيـاة النـاس وتمثلهم لـه بوصفه خلاصـة تجربة إنسـانية عاليـة النضج. فهو « يعـبر في شـكله الأسـاس عن حقيقـة عامة ومألوفة صيغت بأسلوب مختصر سهل، حتى يتداوله جمهور واسـع من النـاس»[١٤]. ويعد المثـل واحداً من مجـالات التعبير التي تتمثل ـ وبتجليات تشـكيل عالية ـ سـلوكية مجتمعها وقيمه المتواضع عليها، فضلاً عن اسـتنطاقها مسـاحة التعبـير بلهجـة المـكان والصياغات اللفظية لأهله.

يـبرز المثـل البغـدادي شـخصية المواطن البغدادي، وهي شـخصية (مدينيـة) تهيأ لها أن تمسي مثالاً يحتذى من تمثلات الشـخصية المدينيـة العراقيـة في البيئـات الأخـرى. وقـد عكسـت الأمثال الشـعبية البغداديـة الحيوية التي عايشتها شخصية إنسانها وتمثلاته لقيم محيطـه الاجتماعي، بل إن ذلك ليتسـع عنده فيسـتوعب كثيراً من تكوينـات البيئة المحيطة بأسـماء أشـيائها ومخلوقاتها وصورها التي تستحيل فضاء تواصل حي ومتفاعل ومنفعل بالبيئة الشعبية ذاتها.

ويسـتجيب المثل البغدادي لكثير من محددات اللهجـة البغداديـة. وقـد تعـددت مصدريته لتسـتوعب العامـي والفصيـح والمأخـوذ من بيئات شعبية أخرى.

وعـلى صعيد تمثل فكـرة المواطنة وقيمها فقد اسـتجاب كثير مـن الأمثال لمهيمنـات الضمير الجمعي السـائد في البيئـة البغدادية، فجاءت داعية إلى بناء علاقات إجتماعية سـليمة، وإلى التمسك بروح الجماعة [١٥].

تمثلت الشخصية البغدادية خصب تاريخها السردي المتأصل منذ حكايات (ألف ليلة وليلة) وحتـى عهدهـا القريب الذي جـرى فيه إنتاج كثير مـن الحكايات الشـعبية وتداولها بلهجة المكان وأهله.

ولعل من السمات البارزة في الحكاية البغدادية إيرادها ـ بين ثنايا سردها ـ لكثير من العادات والتقاليد والمعتقدات التي جرى التواضع عليها في المجتمع البغـدادي، وبما يجعلها مادة غنية الدلالـة يمكن لـدرس (الأنثربولوجيا) أن يفيد منها كثيراً في قراءة سيرورة الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمع العراقي بعامة، والبغدادي على نحو من التخصيص.

ويبدو المشهد السردي البغدادي أكثر إدلالاً على مكتنزاته القيمية حين تتجاور فيه الحكاية مع (السيرة الشـعبية) المستوحاة من الشخصيات التاريخيـة البعيدة في زمانيتهـا أو الأقرب من ذلـك، تلك الشـخصيات التي ناقلهـا التصور الشـعبي من متنها الذي جاءت عليه، ليضفي عليهـا وقائـع وتصـورات تتجـاوز المألـوف إشـباعاً لرغبات مترسخة عنده في تجاوز كثير من محـددات واقعه وقيوده، وبذلك يجعل من

صاحب السيرة ـ الذي وثق اسمه، واستوعب كثيراً من تفصيلات سلوكه ـ بطلاً « تتركز في ملامحه وصفاته، وفي سلوكه وكفاحه كل القيم ذات الطابع السياسي والاجتماعي التي تروم الجماعة تحقيقها في مرحلة ما من تاريخها . وبطل السيرة نموذج يحمل القيم الأصيلة إلا أنه في الوقت ذاته حالة استثنائية في عصره، فهو ثائر يريد تقويم سيء شاذ، وإصلاح أمر فاسد»[١٦]. وعلى هذا تستحيل السيرة الشعبية « تعبيراً عن الوجدان الشعبي، وعن التوق للحرية، وتأكيد الذات فردياً وجماعياً»[١٧].

آثرنا أن نؤخر الحديث عن الشعر الشعبي البغدادي ـ مع اتساع مساحته وتعدد أنواعه ـ لما وجدناه له من تعالق لا انفصام له عن الغناء الشعبي الذي يجري تناول شأنه متماهياً ـ في كثير من نماذجه معه.

وفي الشعر فقد تهيأ لأهل بغداد ـ ومنذ العصر العباسي الذي أمست مدينتهم فيه العاصمة السياسية والحضارية للدولة ـ أن يجترحوا فنوناً شعرية ذات هوية شعبية خاصة بهم، أطلق عليها وصف (الأنواع الشعرية غير المعربة)، وقد وضعوها إلى جانب الشعر الفصيح المتداول عندهم ـ فكان : (المواليا) و(الدوبيت) و(القوما) و(الكان وكان)، وهي أنواع شعرية شهد كثير من الدارسين القدامى بأنها مما استنبطه أهل بغداد والمناطق المحيطة بها منذ زمن مبكر[١٨]. وكان (المواليا) الذي تداوله عامة بغداد منذ القرن الخامس الهجري عدّ أصلاً تناسلت منه الأنواع الأخرى[١٩]. ويبدو أنه بقي وحده في أفق التداول حتى العصر الراهن، بعد أن أختير له مسمى (الموال)، الذي أصبح عند البغداديين ومن جاورهم يسمى لاحقاً بـ (الزهيري)[٢٠] .

يدرك كثير من الباحثين أن معظم الفنون الشعرية في البيئة لا يمكن لكينونتها التعبيرية أن تستجلى إلا حين تغنى، وذلك ما كان عليه حال الشعر في بغداد ـ كما سواها من المدن ـ إذ اجتمع الشعر والغناء تحت مظلة جمالية واحدة. فنحن حين نتحدث عن (القصيدة) أو الموال (الزهيري) أو(الدارمي) أو(البستات) البغدادية إنما نشير إلى مسميات لأنواع شعرية وغنائية في الآن نفسه.

يعد (المقام) العراقي مرتكز الغناء البغدادي وهويته التي اختصت بها هذه المدينة، فهو « الصرح الغنائي الشامخ الذي تميزت به بغداد،»[٢١]. وقد كانت مفردة (المقام) شائعة في المدونات الموسيقية التي وصلت إلينا منذ أوائل القرن الثامن الهجري. فـ « هذه الثروة النغمية الباذخة لابد أن تكون قائمة على ذات الجذور التي قام عليها الكيان الغنائي في أيام العباسيين، مع ملاحظة شيء من الزيادات والنقصان قد عرض له»[٢٢] فاستحال قالباً غنائياً «ذا تراكيب رصينة محكمة الصياغة والسبك، إذ صنفها أهلها على أصناف، فجعلوا لكل صنف منها حداً وبدءاً وختاماً. وجعلوا في تضاعيفها وفي حشوها تزيينات، والتزموا بصيحات وميانات تعرّف كل مقام بخصائص اختص بها»[٢٣]. وعلى ذلك تهيأ للمقامات أن تستحيل امتيازاً موسيقياً بغدادياً متأصلاً، ومن علاماتها الإشارية التي تحيل إليها، حتى أن التزامهم بأنغامه أسس لتلاوة قرآنية خاصة بقرّاء بغداد [٢٤].

لقد هيمنت المقامات على مجمل الأدائية الغنائية البغدادية وأماكنها، فكانت تؤدى

في الكثير من مرافق الحياة الاجتماعية البغدادية ومناسباتها، سواء في ذلك مجالس الذكر والمنتديات الثقافية والمقاهي والأندية الرياضية[٢٥].

* * *

● **هوامش البحث:**

(١) ينظر: لسان العرب مادة (وطن).

(٢) عبد الله الغذامي، القبيلة والقبائلية، أو هويات مابعد الحداثة، ص ١١١.

(٣) خضير فليح الزيدي، شاي وخبز، ص١٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٣.

(٥) يذكر أن أول من اعتمر (السدارة) في عشرينات القرن الماضي كان الملك فيصل الأول مؤسس المملكة العراقية، في محاولة منه للتخلص من لبس الطربوش التركية من قبل أفندية الحكومة.

وبعد أن اعتمرها الملك وارتبط اسمها به شخصياً قيل: (السدارة الفيصلية) اعتمرها بلونها الأسود قادة الحكومة والنواب والأعيان والموظفين، في حين اختير للجيش العراقي اللون (الكاكي) المنسجم مع البدلة العسكرية ـ وهو ما بقيت متداولة فيه حتى وقت ريب في حين لم يعد المدنيون يعتمرونها إلا نادراً.

(٦) خضير فليح الزيدي، ص٢٣٩.

(٧) يشير بعض دارسي حضارات العراق القديمة إلى أن العراقيين آنذاك قد عرفوا كثير من الأكلات العراقية وسموها بأسمائها المتداولة حتى اليوم، كـ (السمك المسكوف)، و(الباجة) و(الكبة) و(الكباب). ينظر: صلاح الصالحي، بلاد الرافدين، دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ٣/٢٦٣.

(٨) ينظر : زينب عبد الله هلال، أضواء على تفاصيل العمارة التراثية ومصطلحاتها،دار الجواهري،بغداد ٢٠١٢م.

(٩) د. منى سلمان محمد، التصميم المعماري للبيوت البغدادية، مجلة التراث الشعبي، بغداد، العدد الاول ٢٠١٩م، ص١٩.

(١٠) الشيخ محمد رضا الشبيبي، أصول ألفاظ اللهجة العراقية، ص ٤٣.

(١١) نذكر منهم : الأب أنستاس الكرملي، و: يوسف غنيمة، و: رزوق عيسى، والشاعر معروف الرصافي،و: محمود شكري الآلوسي، والدكتور مصطفى جواد، و: لويس ما سينيون، ود. حسين علي محفوظ، ود. إبراهيم السامرائي، والشيخ جلال الحنفي، ود. عبد الملك نوري . وللاطلاع على كتاباتهم عن لهجة بغداد، ينظر :علي حداد، جمر أخضر، ص١٤١ وما بعدها.

(١٢) ينظر: الشيخ جلال الحنفي، معجم الألفاظ العامية البغدادية، ص١٤ومابعدها.و: عبود الشالجي، الكنايات العامية .

(١٣) كقولهم : يعني (بمعنى)، لعد(إذن)، لك داد(ياأخي)، أغاتي: سيدي.

(١٤) الكسندر كراب : علم الفولكلور، ص٣٤٢.

(١٥) الحنفي، معجم الألفاظ البغدادية ص٢٩.

(١٦) د.صبري مسلم، التراث الشعبي ودلالاته السياسية والاجتماعية، التراث الشعبي، العدد التاسع ١٩٨٠م. ص١١٦.

(١٧) باسم عبد الحميد حمودي، سحر الحقيقة، ص٢٧.

(١٨) ينظر : صفي الدين الحلي، المرخص الغالي والعاطل الحالي، ص ٩، وابن خلدون، المقدمة، ص٣٦١.

(١٩) ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦١ و : د. رضا القريشي، الكان وكان، ص٢١.

(٢٠) ينظر : الحلي، ص٩.

(٢١) الحنفي، بغداد وتاريخها الفولكلوري في خلاصة مضغوطة، مجلة التراث الشعبي، العدد الثالث ١٩٨٠م، ص٦٦.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٧.

(٢٥) ينظـر: مهيمن إبراهيـم، أغنية المقام في المجتمع البغدادي، التراث الشعبي، العدد الأول ٢٠١٣م.

● مصادر القراءة ومراجعها:

● إبراهيم، مهيمن:

ـ أغنيـة المقـام في المجتمـع البغدادي، مجلـة التراث الشعبي، العدد الأول ٢٠١٣م

● حداد، د. علي :

ـ جمـر أخضرـ قـراءات في الأدب الشـعبي العراقي، مطبعة العهد، بغداد ٢٠١٧م.

● الحلي، صفي الدين :

ـ المرخص الغـالي والعاطل الحـالي، عني بتصحيحه ولهم هونابرغ، ألمانيا ١٩٥٥ م.

● حمادي، د. صبري مسلم:

ـ الـتراث الشـعبي ودلالاتـه السياسـية والاجتماعية، التراث الشعبي العدد التاسع ١٩٨٠م.

● الحنفي، الشيخ جلال :

ـ الأمثـال البغداديـة، مكتبـة الحضـارات، بـيروت ٢٠١٢م.

ـ بغداد وتاريخهـا الفولكلوري في خلاصة مضغوطة، التراث الشعبي، العددالثالث ١٩٨٠م .

● ابن خلدون، عبد الرحمن:

ـ المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت د. ت.

● الزيدي، خضير فليح :

ـ شـاي وخبزـ حكايـات البيت والأزيـاء والطعام في العراق، دار سطور، بغداد ٢٠١٧م .

● الشالجي،عبود :

ـ موسـوعة الكنايـات العامية البغداديـة، مطبعة دار الكتب، بيروت ١٩٨٢م.

● الشبيبي، الشيخ محمد رضا:

ـ أصول ألفاظ اللهجة العراقية، بغداد ١٩٥٦م.

● الغذّامي، عبد الله محمد:

ـ القبيلـة والقبائلية، أو هويات مابعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء ٢٠١١م.

● كراب الكسندر:

ـ علـم الفولكلور، ترجمة رشـدي صالح، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة .

● ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل:

ـ لسان العرب، دار صادر، بيروت ١٩٥٥م.

● هلال، زينب عبد الله :

ـ أضواء على تفاصيل العمارة التراثية ومصطلحاتها، دار الجواهري، بغداد٢٠١٢م.

The concept of (citizenship) and its representation in the Baghdadi heritage

By: Pro.Dr. Ali Haddad
Center of revivel of Arabian Science heritage
University of Baghdad

Abstract

This reading seeks to deal with a subject of a (sociocultural) nature Necessitating the contemplation of a wide area of (Anthropological) Occupations Which coexist the Iraqi people's environment and the environment of Baghdad specifically in the disclosure of that link that has been established between the person and the place that brings together with others who absorbed the same place, Giving them a specific name and a distinct identity to them from others belonging to other places and environments, To establish perspectives of private human activism, and patterns of value and behavioral relationships among them.

It was necessary to restore this reading some of the theoretical determinants of their endeavor, was stopped at the conceptual limit of (citizenship) in its linguistic dimension, and the other conventional, And the scope of his declaration of the values of identity that every human society is keen to represent. These doctrines came to be the foundation that paves the land of reading towards the circulation of the balance of discoveries (citizenship) and values embodied in the Baghdadi society and its heritage.